مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 3 السنة: 2020
ص: 303 - 318 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الفصاحة والبلاغة عند ابن سنان الخفاجي (قراءة في المصطلح)

Eloquence and Rhetoric of IbnSinan Al Khafaji's (Reading of the Term)

[*] **زينب بن قيراط** (طالبة دكتوراه)

Benkirat Zeyneb

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية /جامعة باجي مختار عنابة – الجزائر–

Faculty of Letters and Humanities and Social Sciences/ University of Badji Mokhtar Annaba/Algeria

benkiratzeyneb@gmail.com

تاريخ الإرسال:.2019/12/03	تاريخ القبول:2020/04/21	تاريخ النشر: 2020/09/15

ملخص البحث

سعيا لتقديم رؤية واضحة عن مفهوم مصطلح الفصاحة والبلاغة عند ابن سنان الخفاجي، حاولت في هذا المقال عرض تصوره لهما بشكل يبرز موقفه من إشكالية الفصل بينهما، ومناقشته لآراء سابقيه والرّد عليها مبيّنا أوجه رفضه لها، لتكون أجوبته خطا حاسما يحمل طرحا جديدا (منهجا وتأليفا) بينه وبين ما أفرزته ظروف التفكير البلاغي العربي في القرن الخامس الهجري، وأثر ذلك في تطوير الدرس البلاغي العربي.

الكلمات المفتاح : ابن سنان الخفاجي؛ فصاحة؛ بلاغة؛ سر الفصاحة.

Abstract :

In order to shed light on the vision of Ibn Sinan Al Khafaji's concept of eloquence and rhetoric, the researcher has tried in this article to set out his own vision in this regard to clarify his position on the issue of distinguishing them, besides his discussion of the opinions of his predecessors, and the answer he brings highlighting the reasons for his refusal of theirs, so that his answers are a decisive line carrying a new vision (in methodology and in writing),between him and the results of the circumstances of the Arab rhetorical thought in the fifth century of the *Hijra*, besides the influence of all this on the development of the Arab rhetorical course.

Keywords : Ibn Sinan Al Khafaji; Eloquence; Rhetoric; Secret of Eloquence.

[*] زينب بن قيراط. benkiratzeyneb@gmail.com

مقدمة:

أدرك ابن سنان الخفاجي أهمية مصطلح الفصاحة فعمل على ضبط مدلوله ومضمونه بمفاهيم جديدة قلبت موازين البلاغة العربية منهجا وتأليفا، هدفها تمكين الأدباء والمتعلمين من فصيح الكلام وبليغ الخطاب وهذا ما استدعى حضور نظيره مصطلح البلاغة محدثا جدلا عميقا بين الباحثين لالتباس معناه وتشابك مفاهيمه مع مصطلح الفصاحة، فمنهم من اتهمه بالفصل بينهما، ومنهم من ردّ سبب التشابك إلى صعوبة القبض على الخط الفاصل بين أبعادهما وتمثله لشدة تداخلهما ولخصوصية المرحلة المعرفية المحيطة بهما والتي ميّزها التصادم الحاد بين البلاغيين لتعلقهما بقضية اللفظ والمعنى، فظلّ مفهومهما متباينا ومستغلقا لعجزهم عن ضبطه بدقّة على هيئة يحتكم إليها الباحث في دراسة الفصاحة والبلاغة من ناحية المصطلح، فحاولت أن أستقرئ بعض الآراء والتعريفات من النصوص التي وُجدا فيها، للوقوف على ما اتصل بهما من تصورات حديثة ومدى انسجامها واستقرارها أو اضطرابها بتتبع دورانها في كتابه: **"سر الفصاحة"** للإجابة عن تساؤلات مفادها: كيف بنى ابن سنان الخفاجي تصوره لمفهوم مصطلحي الفصاحة والبلاغة؟ وعلى أي أساس اعتمد في ذلك؟ وهل فرّق فعلا بينهما أم لا ؟

أولا: مفهوم مصطلح الفصاحة:

يحمل مصطلح الفصاحة عند ابن سنان الخفاجي دلالات لغوية عديدة، ما يدعو إلى الوقوف عندها إلى جانب معانيه في المعاجم اللّغوية العربية.

أ– لغة:

يقول: الفصاحة : الظهورُ والبيانُ، ومنها أفصح اللبنُ إذا انجلتْ رغوتُه، وفَصُحَ فهو فصيح قال الشاعر:[1]

وَتَحْتَ الرَّغْوَةِ اللَّبَنُ الفَصِيحُ (الوافر)

ويقال: أفصح الصبح إذا بدا ضوءه، وأفصح كلّ شيء إذا وضح[2]، وفي الكتاب العزيز: ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أفصَحُ مِنِّي لِسَانًا فأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقنِي**﴾(سورة القصص، الآية: **34**)، وفِصْحُ النّصارى عيدُهم، وقد تكلمت به العرب، قال **حسان بن ثابت**:[3]

وَدَنَا الفِصْحُ فالوَلائِدُ يَنْظِمْـ ـنَ سِرَاعًا أكِلَّة المَرْجَانِ(الخفيف)

ويجوز أن يكون ذلك لاعتقادهم أنّ عيسى عليه السلام ظهر فيه.

وسُمّي الكلام الفصيح فصحياً، كما سَمَّوْهُ بياناً، ولإعرابه عمّا عبّر عنه، وإظهاره له إظهارا جليًّا[4].

وجاء في **مقاييس اللّغة**: فصح (الفاء والصاد والحاء) أصل يدلّ على خلوص في شيء ونقاء من الشَّوب، وأفصَحَ الرّجل: تكلَّم بالعربيَّة، وفَصُحَ: جادت لغتهُ حتى لا يلحَنُ[5].

وفي **تاج العروس من جواهر القاموس**: والفَصِيح: المنطلق اللّسان في القول، الذي يعرف جيّد الكلام من رديئه[6].

وأما **في لسان العرب**: وفَصُح الأعجميُّ، فصاحة: تكلَّم بالعربيَّة وفُهِمَ عنه[7].

مما سبق نخلص إلى أنّ: معنى الفصاحة اللّغوي عند ابن سنان الخفاجي لم يخرج عن حيّز الظهور والبيان والوضوح، ولم يذكر أنّه فرّق بينه وبين مصطلح البلاغة – لغويا– بل استعملهما بمعنى واحد، كما استخدمت المعاجم اللّغوية العربية مصطلح الفصاحة بمعنى خلوص وصفاء ونقاء لسان المتكلم بالعربية من اللّحن والعُجمة إلى الطلاقة والسلامة من العيوب النطقية.

ب– اصطلاحا:

قد يلاحظ الدارس في كتاب"**سر الفصاحة**" أنّ صاحبه لم يُفرد الفصاحة بتعريف يضبط مفهومها الاصطلاحي لأنّ هدفه حسب رأيي لم يكن الخوض في تحديد مفهومها بقدر ضبطها بشروط لا تتحقق إلاّ بها، واختصر الكلام بذكر الفرق بينها وبين البلاغة بقوله:

﴿**والفرق بين الفصاحة والبلاغة أنّ الفصاحةَ مقصورةٌ على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلاّ وصفًا للألفاظ مع المعاني، لا يُقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها، بليغة، وإن قيل فيها: فصيحة، وكلُّ كلام بليغ فصيحٌ، وليس كلُّ فصيح بليغًا، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه**﴾[8].

ويقول في موضع آخر:

﴿**وأقول قبل كلامي في الفصاحة وبيانها: إنّي لم أر أقلّ من العارفين بهذه الصناعة، والمطبوعين على فهمها ونقدها، مع كثرة من يدّعي ذلك، ويتحلّى به، وينتسب إلى أهله، ويماري أصحابه في المجالس، ويجاري أربابه في المحافل، وقد كنت أظن أنّ هذا شيءٌ مقصورٌ على زماننا اليوم، ومعروفٌ في بلادنا هذه، حتى وجدتُ هذا الدّاء قد أعيا أبا القاسم الحسنَ بن بشر الآمدي، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبله، وأشكاهُما حتى**

ذكراه في كتبهما، فعلمتُ أنّ العادةَ به جاريةٌ، والرَّزِيَّة فيه قديمة، ولمّا ذكرته رجوت الانتفاع به من هذا الكتاب، وأمَّلت وقوعَ الفائدة به، إذ كان النقص فيما أَبَنْتُهُ شاملا، والجهل به عاما، والعارفون حقيقته قُرْحَة الأدهم بالإضافة إلى غيرهم والنسبة إلى سواهم﴾[9].

ويقول أيضا:

﴿...**وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزأيها فكلامي على المقصود، وهو الفصاحة، غير متميّز إلاّ في الموضع الذي يجب بيانه من الفرق بينهما على ما قدّمت ذكره، فأما ما سوى ذلك فَعامٌّ لا يختص، وخليطٌ لا ينقسم...** ﴾[10].

يبدو أنّه فرّق بين مصطلحي الفصاحة والبلاغة من جهة حصر الفصاحة في اللفظ والبلاغة في المعنى ثم نجده يجمع بينهما من باب علاقة الجزء بالكل؛ أي أنّ تفريقه النظري بينهما فرضه منهجه في بداية الكتاب القائم على التدرج من المفرد إلى المركب، ويبدو أنّ هذا ما تسبب باتهامه بالفصل التام بينهما، وأوقعه في اللبس- فيما بعد- ما دفع **حمّادي صمّود** لوضع عدّة فرضيات لقبول هذا التفريق[11]:

1- فإمّا أنّه لا يعترف بأيّة مزية لوصف الألفاظ مع المعاني – وهو ميدان البلاغة في رأيه- .

2- أو أن يكون هناك بعض التجاوز في الاستعمال فيطلق الفصاحة على ما تدل عليه الفصاحة والبلاغة معا، وهو لا يُقبل في كتاب يروم من ورائه صاحبه أن يقدّم تأليفا متكاملا ونموذجا يُحتذى.

3- أو أنّ مفهوم الفصاحة عنده واسعٌ بحيث يشمل خصائص اللفظ والكلام معا، وإذ ذاك يصبح الفصل الذي أقامه بين الميدانين مصطنعا أو أنّه لم يستطع الالتزام به لتداخل الميدانين وصعوبة الفصل بينهما.

ويعلّق بعد عرضه لهذه الفرضيات بقوله: ﴿**ولا يتسنى معرفة أقرب الاعتبارات إلى الصواب إلاّ بعد استعراض شروط الفصاحة كما تبلورت في هذا المؤلف**﴾[12].

فهذا يعني أنّ: ابن سنان تفطّن إلى أنّ الفصاحة عند سابقيه ومعاصريه لا تزال محل خلط واضطراب في مباحثها وهذا بسبب قصورهم عن ضبط مفهومها فرضته التيارات الثقافية والدينية التي كانت تعصف بالمجتمع الإسلامي، ومجادلات المتكلمين على اختلاف مذاهبهم في موضوع الإعجاز القرآني وعلاقته بالفصاحة وربطها بثنائية اللفظ والمعنى ما دفعه لوصف عجز علماء

البلاغة عن معرفة حقيقة الفصاحة وصعوبة تحديد شروطها بالداء الذي أعيا الجاحظ والآمدي مبرزا اهتمامه بها بتأليفه لكتاب "**سر الفصاحة**" مخالفا ما هو متواضع عليه عند سابقيه مفهوما ومنهجا وإجراءً، وعلى الرغم من الاضطراب الذي نصطدم به عند تصفح قضايا كتابه لحداثة الطرح والتناقض الذي لحقه حين تفريقه بين مصطلحي الفصاحة والبلاغة نظريا بين النّصين السابقين: ﴿**والفرق بين الفصاحة والبلاغة أنّ الفصاحةَ مقصورةٌ على وصف الألفاظ...** ﴾ و ﴿...**وإذا كانت الفصاحة شطرها وأحد جزأيها...** ﴾ أرجّح أنّها ضرورة منهجية أفضت إليها عوامل عديدة على حد قول **حمّادي صمّود** أنّ الكتاب : ﴿ **أنصع شهادة عن المآزق التي وقع فيها علماء البلاغة نتيجة فصلهم بين الألفاظ والمعاني وإرادة الانتصار لهذا الشق أو ذاك، كما يجمع الكتاب، بوضوح، كلّ السلبيات التي دبّت إلى تيار كامل في التأليف بالغ أصحابه في تقنين ما لاح لهم سبب بلاغة القول وفصاحته وتقديمه في شكل قواعد يقصد منها إما تعليم الفصاحة ذاتها أو كيفيات الاستدلال على وجودها**﴾[13] مصرحا- قصدا- منذ البداية أنّ هدفه معرفة حقيقة الفصاحة ليلامسها ضمن تصور جديد لم يتوقعه أحد في هذه المرحلة، والتي انتهت بوضع شروط تضبطها على أسس لغوية – مع العلم – أنّ هذه الشروط كانت موجودة ومعروفة عند علماء البلاغة المتقدمين وما قام به ابن سنان تنظيمها وتبويبها ليسهل على المتعلم الاستفادة منها، فأكّد بقوله: ﴿ **إنّ الفصاحة على ما قدمنا نَعْتٌ للألفاظِ إذا وُجدت على شروط عدة، ومتى تكاملت تلك الشروطُ فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضدادها تستحق الإطّراح والذم**﴾[14].

وعليه يمكن عرض طريقة ترتيب وتنظيم شروط الفصاحة والبلاغة عند ابن سنان الخفاجي على النحو الآتي:

أ- شروط الفصاحة في اللفظ المفرد[15]:

1- أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج (في اللفظ المفرد والمركب).

2- أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية على غيرها (خاص بالمفرد).

3- أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية (خاص بالمفرد).

4- أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية (خاص بالمفرد).

5 – أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة (في اللفظ المفرد والمركب).

6 – أن لا تكون الكلمة قد عُبر بها عن أمر آخر يُكره ذكره (في اللفظ المفرد والمركب).

7 – أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف (خاص بالمفرد).

8 – أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عُبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك (خاص بالمفرد).

ب– شروط الفصاحة في اللفظ المركب:

1– شروط فصاحة المركب التي يشترك فيها مع المفرد:

1–1 أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج (في اللفظ المفرد والمركب).

2–1 أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية على غيرها (خاص بالمفرد).

3–1 أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية (خاص بالمفرد).

4–1 أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية (خاص بالمفرد).

5–1 أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة (في اللفظ المفرد والمركب).

6–1 أن لا تكون الكلمة قد عُبر بها عن أمر آخر يُكره ذكره (في اللفظ المفرد والمركب).

7–1 أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف (خاص بالمفرد).

8–1 أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عُبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك (خاص بالمفرد).

2– الشروط الخاصة بفصاحة المركب:

1– شروط ونعوت الفصاحة والبلاغة:

أ– وضع الألفاظ موضعها:

1– أن لا يكون في الكلام تقديم وتأخير يؤدي إلى إفساد معناه وإعرابه .

2– أن لا يكون الكلام مقلوبا فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه.

3– حسن الاستعارة.

4– أن لا تقع الكلمة حشوا.

5– أن لا يكون الكلام شديد المداخلة يركب بعضه بعضا (المعاظلة).

6– أن لا يعبّر عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذم ولا في الذم بالألفاظ المعروفة للمدح.

7– حسن الكناية.

8– أن لا يُستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور/ من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنّحويين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التي يختص بها بعض المهن والعلوم.

ب– من شروط الفصاحة المناسبة بين الألفاظ :

وهي على ضربين:

1– مناسبة بين اللّفظتين من طريق الصيغة.

1–1 السجع والازدواج.

1–2 الترصيع في الشعر والنثر.

1–3 حمل اللفظ على اللفظ في الترتيب.

1–4 التناسب في المقدار.

1–5 المجانس.

2– تناسب الألفاظ من طريق المعنى:

2–1 المطابق.

2–2 التبديل.

2–3 المخالف.

2–4 الإيجاب والسلب.

ج– من شروط الفصاحة والبلاغة:

1– الإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام.

2– أن يكون معنى الكلام واضحا جلّيا.

د– من نعوت البلاغة والفصاحة:

1– الإرداف والتتبيع.

2– التمثيل.

ج- الكلام في المعاني المفردة[16]:

1- الصحة في التقسيم.

2- من الصحة تجنب الاستحالة والتناقض.

3- من الصحة أن لا يوضع الجائز موضع الممتنع.

4- صحة التشبيه.

5- صحة الأوصاف في الأغراض.

6- صحة المقابلة في المعاني.

7- صحة النسق والنظم (التخلص).

8- صحة التفسير.

9- كمال المعنى.

10- المبالغة والغلو في المعنى.

11- الاستدلال بالتمثيل.

12- الاستدلال بالتعليل.

نستنتج مما سبق:

1- أنّ الخفاجي قسّم شروط الفصاحة والبلاغة إلى ثلاثة أقسام: الكلام في الفصاحة، والكلام في الألفاظ المؤلفة، والكلام في المعاني المفردة.

2- انطلق في تحديده لشروط الفصاحة والبلاغة من الصوت إلى اللفظ إلى التركيب إلى المعنى؛ أي مرتبة ترتيبا تصاعديا (من الجزء إلى الكل)، وأعتقد أنّها خطوة مهمة من شأنها إضافة مسحة علمية على الدرس البلاغي العربي ويقرّبها أكثر من حيّز الدراسات اللّسانية والأسلوبية والتداولية.

3- تتقاطع شروط الفصاحة في اللفظ المؤلف مع شروط الفصاحة في اللفظ المفرد في ثلاثة شروط:

1- أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج (في اللفظ المفرد والمركب).

2- أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة(في اللفظ المفرد والمركب).

3–أن لا تكون الكلمة قد عُبر بها عن أمر آخر يكره ذكره (في اللفظ المفرد والمركب). وباقي الشروط تختص بالمفرد ولا علاقة للتأليف بها.

4– تخصيصه لقسم ثان يجمع شروط ونعوت الفصاحة والبلاغة معا، ويعد هذا القسم بؤرة الاضطراب لأنّه أوقع صاحبه في اللبس (الفصل النظري الذي نادى به في مطلع كتابه).

5– تخصيصه قسم آخر خاص بالكلام في المعاني المفردة لتدارك الاضطراب الحاصل على مستوى القسم السابق على حد قول **محمد العمري**: ﴿ **ومادام الأمر قد وصل إلى هذا الحد من الالتباس، ومادام أكثر النّاس يعدونهما شيئا واحدا فقد ارتأى أن يتحدث عن المعاني المفردة التي تستقل بها البلاغة في تصوره الخاص** ﴾[17].

ومن النصوص النظرية –أيضا– التي تثبت سبب جمعه بين الفصاحة والبلاغة (تطبيقا) ما ورد في مطلع الفصل الخاص بشروط الفصاحة في اللفظ المركب، مقارنا بين صناعة النجارة وصناعة الكلام بقوله: ﴿... **فلنذكر الآن ما يحضرنا من القول في الكلام المؤلّف، وهو القسم الثاني ممّا ابتدأنا بذكره أوّلا، ونقول قبل ذلك، إنّ كل صناعة من الصناعات فكمالها بخمسة أشياء على ما ذكره الحكماء: الموضوع، وهو كالخشب في صناعة النجارة، والصانع وهو النّجار، والصورة وهي كالتربيع المخصوص إن كان المصنوع كرسيّا والآلة مثل المنشار والقدوم وما يجري مجراهما، والغرض هو أن تقصد على هذا المثال الجلوس فوق ما نصنعه، فإذا كان الأمر على هذا، ولا تُمكن المنازعة فيه، وكان تأليف الكلام المخصوص صناعة وجب أن تُعتبر فيها هذه الأقسام**﴾[18]، ويواصل قوله: ﴿ **إنّ الموضوع هو الكلام المؤلّف من الأصوات على ما قدّمته...، فأما الصانع المؤلّف فهو الذي ينظم الكلام بعضه مع بعض، كالشاعر والكاتب وغيرهما...، وأما الصورة فهي كالفصل والعلوم التي اكتسبها بعد ذلك ...، وأما الغرض فبحسب الكلام المؤلف، فإن كان مدحا كان الغرض به قولا ينبئ عن عظم حال الممدوح، وإن كان هجوا فبالضّد، وعلى هذا القياس كل ما يؤلّف، وإذا تأملته وجدته كذلك**﴾[19].

ويمكن تلخيص هذه المقارنة في الجدول الآتي[20]:

	النجارة	الكلام المخصوص
الموضوع	الخشب	الكلام المؤلف من أصوات
الصانع	النّجار	الشاعر أو الكاتب
الصورة	الاستدارة في الكراسي مثلا	الفصل من الكتاب والبيت من الشعر
الآلة	المنشار القادوم	الطبع والعلوم المكتسبة
الغرض	الجلوس (بالنسبة للكرسي مثلا	المدح والذم... إلخ

علّق**"محمد العمري"** على هذا الجدول بقوله: أجّل المؤلف الحديث عن الصانع والآلة والغرض إلى موضع آخر، وتصدى للمشكلة الحقيقية التي تضعه موضعا خاصا من البحث البلاغي وهي مشكلة الموضوع، فيرفض وجهة نظر من يدّعي أنّ الألفاظ آلة، كما يجعل المعاني وتأليف الألفاظ مكونات لصناعة الصانع التي يظهرها في الموضوع أي الصورة، ومن ثمّ تبقى الألفاظ هي موضوع الكلام المخصوص[21] لذلك يقول **ابن سنان الخفاجي**: ﴿**ومع هذا البيان كله فالفصاحة عبارة عن حُسن التأليف في الموضوع المختار**﴾[22]؛ أي أنّه اختار الألفاظ كشرط من شروط الفصاحة وأدرجه ضمن التعريف إلى جانب الصورة (التأليف)[23] ثم يواصل صاحب سر الفصاحة كلامه قائلا: ﴿...**قد ذكرت الموضوع والوجه في اختياره، وعلى أي صفة يكون المرضي منه والمكروه**﴾[24]، يقصد أنّه انتهى من شروط فصاحة الألفاظ المفردة[25].

إذن: هذه هي المظاهر العامة للمنطلقات النظرية لابن سنان الخفاجي والتي طرحها على أساس توجهه المذهبي (اعتماده الصّرفة وبناء تصوره البلاغي على اعتبار الكلام أصواتا ومقاطع متأثرا بمذهب المعتزلة) وخلفية معرفية تيسّرت له باعتقاد مفاده حصر الفصاحة في الأصوات غير أنّه لم يستطع التقيّد بذلك –كما تبيّن ذلك سابقا –، لأنّ الأصوات لا تستوعب وصف النّص المؤلّف

على طريقة الشعر والرسائل فتحدّث عن اللفظ المؤلف بحسب المعنى ثم انتقل للحديث عن المعاني المفردة[26] بقوله: ﴿**فإذا كان قد مضى الكلامُ في الألفاظ على الانفراد والاشتراك فلنذكر الآن الكلام على المعاني مفردة من الألفاظ ليكون هذا الكتاب كافيا في العلم بحقيقة البلاغة والفصاحة، فإنّهما وإن تميّزا من الوجه الذي ذكرتُه فهما عند أكثر النّاس شيءٌ واحد، ولا يكاد يفرّق بينهما إلاّ القليل**﴾[27].

فكل هذا يؤكد على أنّ توجهه المذهبي أوقعه في الاضطراب والتناقض حين واجه طبيعة الموضوع[28](الخطاب) وما تراكم فيه من معرفة بلاغية عبر خمسة قرون، إذ أنّ اعتماد الأصوات وحدها يلغي أكثر التراث البلاغي ويجافي طبيعة الخطاب البشري[29].

ثانيا– مفهوم مصطلح البلاغة:

ارتبط ظهور مصطلح الفصاحة عند ابن سنان الخفاجي بمصطلح البلاغة فأخذ الأول حيّزا كبيرا من كتابه إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من مناقشة تعريفات سابقيه لمصطلح البلاغة بشيء من الاحتراز رافضا الكثير منها:

قيل: ﴿**وقد حدّ النّاسُ البلاغة بحدود إذا حُقِّقت كانت كالرّسوم والعلائم، وليست بالحدود الصحيحة، فمن ذلك قول بعضهم: لمحةٌ دالةٌ. وهذا وصفٌ من صفاتها، فأما أن يكون حاصرا لها، وحدّا يُحيط بها فليس ذلك بممكن؛ لدخول الإشارة من غير كلام يُتلفّظ به تحت هذا الحدّ**﴾[30].

ورفض قولهم: ﴿**البلاغة معرفة الفصل من الوصل؛ لأنّ الإنسان قد يكون عارفاً بالفصل والوصل، عالما بتمييز مختار الكلام من مطّرحه، وليس بينه وبين البلاغة سبب ولا نسبٌ، ولا يمكنه أن يؤلف ما يختاره من تأليف غيره، والحدود لا يحسن فيها التأوّل، وإقامة المعاذير، وغرابة ألفاظ تدلّ على المقصود؛ لأنّها مبنيّة على الكشف الواضح، موضوعة للبيان الظّاهر، والغرضُ بها السلامة من الغامض، فكيف تُوقعُ في غامض مثله!** ﴾[31].

وأيضا:

﴿ **وكذلك قول الآخر: البلاغة أن تُصيبَ فلا تخطىء، وتسرعَ فلا تبطىء، لأنّ هذا يصلح لكل الصنائع، وليس بمقصور على صناعة البلاغة وحدها، ثمّ إنّما سئل عن بيان الصواب في هذه الصناعة من الخطأ فجعل جواب السائل نفس سؤاله، وبهذا أيضا يفسد قول من**

ادّعى أنّ حدّها: الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خطل، وقول من قال: البلاغة اختيارُ الكلام، وتصحيحُ الأقسام؛ لأنّ هذين إنّما سئلا عن حدٍّ يُبيّن الكلام المرفوض / من المختار، والخطأ من الصواب، ويوضح كيف يكون الإيجاز مختارا، ومتى يقع الإطناب مرضيا محمودا، فأحالا على ما السؤال فيه باق، وعدم العلم معه موجود﴾[32].

من الواضح أنّ ابن سنان الخفاجي لم يقتنع بما قدّمه سابقوه من تعريفات لمصطلح البلاغة لأنّه اعتراها ما اعترى غيرها من النقص، فبعضهم ذكر وصفا من أوصافها في قولهم: ﴿**لمحة دالة**﴾ بمعنى (الإيجاز) وليس حدا[33]، والآخر وصفها بحسن اختيار الكلام، وآخر بإصابة المعنى، وهي كلها تعريفات قيلت للإجابة عن السؤال التقليدي **ما البلاغة؟** إلاّ أنّها لم تلمس جوهر البلاغة ولم تعط تحديدات جامعة مانعة يُحتكم إليها حين يعجز المتكلم عن التمييز بين الصواب والخطأ، لجهله بمقاييس الفصاحة مما يؤدي إلى استغلاق المعنى في ذهن السامع وإعاقة العملية التواصلية مما دفعه إلى استحسان تعريف آخر يقول: ﴿**وما أحسن ما قال إبراهيم بن محمد المعروف بالإمام: يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع، وهذا كلام مختار في تفضيل البلاغة**﴾[34].

فهذا يعني أنّ: ابن سنان الخفاجي استنكر التعريفات البلاغية التي تهمل عناصر العملية التواصلية وتركز على صفات وخصائص البلاغة: (**الإيجاز، وحسن اختيار الكلام، وإصابة المعنى**)، لأنّ المتعلم يبحث عن من يزوّده بالقدرة على إنتاج الكلام البليغ وإيصال المعنى إلى السامع وبالتالي تحقيق عملية الفهم والإفهام؛ أي أنّ عملية التواصل لا تتحقق إلاّ بوجود طرفين متكلم وسامع، ويشترط في المتكلم أن يكون فصيحا ويضبط تعابيره بالتزامه بمقاييس الفصاحة (شروط نصّية داخلية) ليتمكن من توصيل مقاصده إلى السامع والتأثير فيه مع مراعاة مقتضى حاله أثناء الكلام وهذا ما يمنح الإفادة والفعالية للرسالة (الخطاب).

إذن: فهذا الوعي كرؤية منهجية وممارسة معرفية، جعله- كما أشرت سابقا- ينتقي تعريفا منطلقه الأساس التواصل الناجح بين المتكلم والسامع؛ أي بوجود عناصر تتفاعل فيما بينها ومعرفة آليات الصياغة السليمة للخطاب والسياقات التي تحكمت في ضبط عملية التخاطب بين الطرفين وهي كلها مؤشرات تحمل بعدا تداوليا وهو ما أكّده **خليفة بوجادي** بقوله: ﴿**وإذا كانت**

التداولية[35] في أوجز تعريفاتها، هي دراسة مناحي الكلام، أو دراسة اللّغة حين الاستعمال، فإنّ البلاغة هي المعرفة باللّغة أثناء استعمالها﴾[36].

بناء على هذا، نفهم أنّ البلاغة تتداخل مع معطيات التداولية في دراستها للّغة لحظة الاستعمال والذي بدوره يكون مرتبطا بالكلام والمتكلم، وفق شروط محدّدة على النحو الآتي[37]:

1– صحة اللّغة وصوابها، ويعني ذلك مراعاة النظام اللّغوي في جميع مستوياته (الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية) وسلامة الألفاظ من العيوب.

2– أن يكون المعنى الذي قصده المتكلم مطابقا ومنسجما مع الألفاظ التي استعملها في كلامه.

3– أن يكون المتكلم صادقا في نفسه.

4– مراعاة أقدار السامعين ومقتضيات الأحوال.

فالبلاغة والتداولية تتفقان أيضا في اهتمامهما بعناصر الخطاب وتشكل نسقها العام.

نستنتج مما سبق أنّ البلاغة من إنجاز متكلم بليغ مدرك لمقاصد خطابه يسعى لإيصال المعنى إلى المخاطَب بغرض تحقيق الإفادة والتأثير والإقناع والإمتاع ولفت انتباهه واستمالة أسماعه على وجه يلتزم فيه بمقاييس الكلام الفصيح، ومراعاة مقام التخاطب بما يتناسب وأوضاع المخاطَب (النفسية وقدراته الذهنية والفكرية والثقافية والاجتماعية)، وهنا يبرز دور المقام ليفرض على المتكلم استعمال اللّغة في سياق معيّن لضمان حدوث عملية التواصل على نحو يحقق الفهم والتأثير في المتلقي.

خاتمة:

بناء على كل ما تقدم يمكن القول:

1– لم يضع ابن سنان الخفاجي تعريفا جامعا مانعا لمصطلحي الفصاحة والبلاغة بل اكتفى بنقل آراء سابقيه ومناقشتها، لأنّه من المعتزلة، ومن أعلام المدرسة الأدبية والتي من خصائصها: عدم الاهتمام بوضع التحديدات والتعريفات.

2– فرّق بين مصطلحي الفصاحة والبلاغة نظريا (في بعض المواضع) لتوضيح منهج كتابه الذي ينطلق من اللفظ إلى التركيب إلى المعنى إلاّ أنّه لم يلتزم بالفصل بينهما تطبيقا فجمع بينهما في معرض حديثه عن شروط ونعوت الفصاحة والبلاغة.

3– ارتكز مفهومه للفصاحة والبلاغة على فكرة التواصل التي تبدأ من أهم عنصر من عناصر الخطاب المرسل (المتكلم) فيشترط منه إفهام المعاني والقصدية والإفادة (حسن التأليف والتركيب) وإيصالها إلى السامع وربطها بمقتضى حاله، وكذلك الاهتمام بالرسالة لدورها الفعّال في تحقيق أغراض ومقاصد المتكلم وبلاغة خطابه، وتجدر الإشارة إلى أنّ البلاغة في اعتمادها على البعد التواصلي بين منتجي الخطاب (المخاطِب والمخاطَب) ومقامه حين إنتاج الخطاب ومقاصده يكشف عن ملامح تداولية بشكل يستفز لإثارة إشكالية مقال آخر لرصد مظاهرها في كتاب" **سر الفصاحة** ".

هوامش:

[1] ابن سنان الخفاجي(أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد)، سر الفصاحة، حققه وعلّق عليه وصنع فهارسه: النبوي عبد الواحد شعلان، دار قباء، القاهرة، (د ط)، 2003م، ص: 66.

[2] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4] المصدر نفسه، ص ص: 66-67.

[5] ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن زكريّا)، مقاييس اللّغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د ط)، (د ت)، 4/ 506-507، مادة: (فصح).

[6] الزبيدي(السيّد محمد مرتضى الحسيني)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط2، 1994م، 18/7، مادة: (فصح).

[7] ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم الافريقي المصري)، لسان العرب، دار صادر، (د ط)، بيروت، (د ت)، 544/2، مادة: (فصح).

[8] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص: 67.

[9] المصدر نفسه، ص: 73.

[10] المصدر نفسه، ص: 68.

[11] ينظر، حمّادي صمّود، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس، ط2، 1994م، ص: 442.

[12] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[13] المصدر نفسه، ص: 441.

[14] المصدر السابق، ص: 73.

[15] المصدر نفسه، من ص: 74 إلى ص: 348.

[16] المصدر نفسه، من ص: 349 إلى ص: 415.

[17] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، (د ط)، 1999م، ص: 424.

[18] المصدر السابق، ص: 125.

[19] المصدر نفسه، ص ص: 125-126.

[20] المصدر السابق، ص: 417 .

[21] ينظر، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[22] المصدر السابق، ص: 129.

[23] ينظر، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[24] المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[25] ينظر، المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[26] ينظر، المصدر نفسه، ص: 25، ومحمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية (نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر)، أفريقيا الشرق، المغرب، (د ط)، 2001م، ص: 102.

[27] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص: 348 .

[28] الموضوع: يقصد طبيعة اللغة التي هي أصلا تواصل، ثم معطيات البلاغة العربية، (محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، هامش ص: 14).

[29] ينظر، المصدر نفسه، ص: 25.

[30] المصدر السابق، ص: 67.

[31] المصدر نفسه، ص ص: 67-68.

[32] المصدر نفسه، ص: 68.

[33] الحد: ﴿**واعلم أنّ الغرض بالحد هو الإحاطة بجوهر المحدود على الحقيقة حتى لا يخرج منه ماهو فيه، ولا يدخل فيه ما ليس منه** ﴾، (جابر بن حيان، رسالة الحدود، دراسة وتحقيق وتعليق: عبد الأمير الأعسم في كتابه: المصطلح الفلسفي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط2، 1989م، ص: 165.

[34] المصدر السابق، ص: 70.

[35] التداولية: هي الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللّسانيات، ويهتم أكثر باستعمال اللّغة في التواصل، (فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار، اللاذقية، سورية، ط1، 2007 م، ص: 19).

[36] خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية (مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم)، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، ط1، 2009م، ص: 154.

[37] ينظر، محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد (المصطلح والنشأة والتجديد)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ص: 16.